وخوَّفهم وبشَّع لهم ما سوف ينتظرهم من مصير إنْ ظلوا على الكفر ؛ لعلَّهم يرتدعون[1] ، ويتذكرون ضرورة العودة إلى عبادة الإله الحق سبحانه ، يأتى الحق سبحانه وتعالى بما يعيد إليهم رُشْدَ الإيمان فى نفوسهم ، فيقول :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ[2] فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

أى : أن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : اسألهم هذا السؤال ، ولا يسأل هذا السؤال إلا مَنْ يثق فى أن المسئول لو أدار فى ذهنه كل الأجوبة ، فلن يجد جواباً غير ما عند السائل .

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - إن جاء لك من يقول : أبى يهملنى ، فتمسك به ، وتسأله : من جاء لك بهذه الملابس وذلك القلم ويُطعمك ويُعلِّمك ؟ سيقول لك : أبى .

وأنت لا تسأله هذا السؤال إلا وأنت واثق أنه لو أدار كل الأجوبة فلن يجد جواباً إلا الذى تتوقعه منه ، فليس عنده إجابة أخرى ؛ لأنك لو كنت تعرف أنه سوف يجيبك إجابة مختلفة لما سألته فكأنك ارتضيت حكمه هو فى المسألة .

---

(١) الارتداع : الكف عن الشيء . وترادع القوم : ردع بعضهم بعضاً ، فزجروهم وكفوهم عن المعاصى وإيذاء الناس [وانظر : لسان العرب - مادة ردع] .

(٢) فى الآية منطق الفطرة بالتوحيد ، فالكافر إذا سئل عن خلق الكون ، وعن تدبير الأمر ، وعن عجائب الآيات لا يجد جواباً إلا أن يقول بدافع الفطرة : الخالق هو الله ، والمدبر هو الله .

والحق سبحانه وتعالى قال فى بداية هذه الآية الكريمة : ﴿قُلْ﴾ كما أنزل عليه مثيلاتها مما بُدِىء بقوله سبحانه : ﴿قُلْ﴾ مثل قوله سبحانه :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الصمد]

وهذا ما اقتضاه خطاب الحق سبحانه دائماً للخَلْق ، ويختلف عن خطاب الخَلْق للخَلْق ، فحين تقول لابنك : «اذهب إلى عمِّك ، وقُلْ له كذا» . فالابن يذهب إلى العمِّ ويقول له منطوق رسالة الأب ، دون أن يقول له : «قُلْ» ، أما خطاب الحق سبحانه للخلق ، فقد شاء سبحانه أن يبلِّغنا به رسوله ﷺ كما نزل ﴿قُلْ﴾ فالرسول ﷺ أمين فى البلاغ عن الله تعالى ، لا يترك كلمة واحدة من الوحى دون أن يبلِّغها للبشر ، وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى أمره ، فهو يبلغ ما أُمِرَ ، حتى لا يحرم آذان خلق الله تعالى من كل لفظ صدر عن الله سبحانه .

وكذلك أمر الحق - سبحانه - هنا لرسوله ﷺ بأن يقول : ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٣١)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن الرزق هو ما يُنتفع به ، والانتفاع الأول مُقوِّم حياة ، والثانى تَرَفٌ أو كماليات حياة ، والرزق الذى هو أصل الحياة هو ماء ينزل من السماء ، ونبات يخرج من الأرض [1] .

وهكذا قال الحق سبحانه السؤال والإجابة معروفة مقدَّماً ، فلم يَقُلْ لرسوله ﷺ : «أجبْ أنت» بل ترك لهم أن يجيبوا بأنفسهم .

وكذلك جاء الحق سبحانه بسؤال آخر : ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

---

(١) وهذا الرزق هو ما ذكره رب العزة فى قوله تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ [عبس] .

والسمع والبصر هما السيدان لملَكَات الإدراك ؛ لأن إدراك المعلومات[1] له وسائل متعددة ، إنْ أردتَ أنْ تُدرك رائحة ؛ فبأنفك ، وإنْ أردتَ أنْ تدرك نعومة ؛ فبلمسك وببشرتك ، وإنْ أردتَ أن تدرك مذاق شيء فبلسانك ، وإنْ أردت أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعمدتها اللسان ، وإنْ أردتَ أن تسمع فبأذنك .

وكذلك تتجلَّى لك المرائى[2] بعينيك ، ثم تأتى إدراكات متعددة من الحواس ؛ لتُكوِّن أشياء نسميها الخميرة ، توجد منها القضية العقلية الأخيرة ، فالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إن يلمسها حتى تلسعه ؛ فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك ؛ لأنه اختبرها بحواسه فارتكزت لديه القضية العقلية وهى أن هذه نار محرقة ، واستقر هذا لديه يقيناً .

وهكذا تكون الإدراكات الحسية إدراكات متعددة تصنع خميرة فى النفس تتكون منها الإدراكات المعنوية .

إذن : فوسائل العلم للكائن الحى هى الحواس ، وهذه الحواس تعطى العقل معطيات تنغرز فيه لتستقر من بعد ذلك فى الوجدان ؛ فتصبح عقائد .

إذن : فمراحل الإدراك هى : إدراك حسىٌّ ، وتفكُّر عقلىٌّ ، فانتهاء عَقَدىٌّ ؛ ولذلك نسمِّى الدين عقيدة .

أى : أنك عقدت الشيء فى يقينك بصورة لا تحلُّه بعدها من جديد لتحلّله ، فهذا يُسمى عقيدة .

---

(١) الإدراك يعطى الوجدان ، والوجدان يعطى الاختيار ، والاختيار يعطى الفكر والتأمل ، وعن طريق الفكر المتأمل يكون توحيد الله .

(٢) رأى يرى فهو راء ، وما يقع عليه البصر فهو مرئىّ ، والجمع : مَرَائى .

ولذلك حينما أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يقصَّ علينا مراحل الإدراك في النفس الإنسانية ؛ ليربي الإنسان معلوماته ، قال الحق سبحانه :
﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون (٧٨) ﴾ [النحل]

لذلك يقال : «كما ولدته أمه» ، أى : لم يُعْطَ القدرة على استخدام حواسِّه بعد ، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواس ، ويجعله قادراً على استخدامها .

ولم يذكر بقية الحواس ، بل جاء بالسيدين ، وهما السمع والبصر ؛ لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسماع ، وهما أهم آلتين في البلاغ ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل ، وتسمع البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل .

وقد لفتنا الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - إلى العجائب فقال : « اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحمٍ ، ويتكلم بلَحْمٍ ، ويسمع بعظمٍ ، ويتنفس من خَرْمٍ » [1] .

فالصوت يطرق عظمة الأذن ، ويرنّ على طبلتها ، ونرى بشحمة [2] العين ، وننطق بلحمة اللسان .

وأضاف البعض : «ونشمّ بغضروف ، ونلمس بجلد ، ونفكر بعجين» . فالإنسان يولد وكأن مخه قطعة من العجين التى تعمل فى استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهى التى ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك .

---

(١) ذكره الشريف الرضى فى كتابه «نهج البلاغة» (٤/ ٤) طبعة مؤسسة الأعلمى للمطبوعات - بيروت .
(٢) شحمة العين : مُقلتها ، وقيل : حدقتها أو ما تحت الحدقة . أما شحمة الأذن فهو ما لان من أسفلها ، وهو مُعلّق القُرط . [اللسان : مادة (شحم)] .

وجاء قول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بوسيلتين من وسائل الإدراك ، وترك بقية الوسائل الثلاث الأخرى الظاهرة ، مع أن العلم الحديث حين تكلم عن وظائف الأعضاء ، احتاط للأمر وقرر أن هذه الحواس هى الحواس الخمس الظاهرة .

وهذا يعنى أن هناك حواساً أخرى غير هذه سيكشف عنها ، وهى حواس لم يكن القدماء يعرفونها ، مثل حاسة البَيْنَ بَيْنَ ، التى نفرق بها بين أنواع الأقمشة والأوراق وغيرها ، وكثافة هذا النوع من ذاك ، وهذه الحاسة توجد بين لمستين من إصبعين متقاربين[1] .

وكذلك حاسة العَضَل التى تزن ثقل الأشياء ، وتعرف حين تحمل ثقلاً ما مدى الإجهاد الذى يسببه لك، وهل يختلف عن إجهاد حَمْل ثقلٍ آخر .

وحين نظر العلماء في معانى الألفاظ قالوا: «النظائر حين تخالف فلا بد من علّة للمخالفة» فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق سبحانه فى آلة الإدراك «السمع» ، وقال فى الآلة الثانية «الإبصار» ؟، ولماذا جاء السمع بالإفراد ، وجاء الإبصار بالجمع ، ولم يأتْ بالاثنين على وتيرة[2] واحدة ؟

فنقول : إن المتكلم هو الله تعالى ، وكل كلمة منه لها حكمة وموضوعة بميزان ، وأنت حين تسمع ، تسمع أى صوت قادم من أى مكان ، لكنك بالعين ترى من جهة واحدة ، فإنْ أردتَ أن ترى ما على يمينك فأنت تتجه

(١) وهذا غير حاسة اللمس التى ندرك بها نعومة أو خشونة هذا القماش أو ذاك ، فهذا يُدرك بحاسة اللمس وعادة يكون هذا بإمرار كفِّ اليد على القماش ، أما إدراك (تخانة) هذا القماش أو ذاك فيكون بإدراكه بهذه الحاسة .

(٢) الوتيرة : الطريقة . مأخوذة من التواتر أى : التتابع ، وجرَت الأشياء على وتيرة واحدة : أى : بنفس الصفة والطريقة . [اللسان : مادة (وتر)].

بعينيك إلى اليمين ، وإنْ أردت أن ترى ما خلفك ، فأنت تغيِّر من وقفتك ، فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة ؛ لترى ما تريد.

وأيضاً فالسمع لا اختيار لك فيه ، فأنت لا تستطيع أن تحجب أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين.

وجاء الحق - سبحانه وتعالى - بالسمع أولاً ؛ لأن الأذن هي أول وسيلة إدراك تؤدي مهمتها في الإنسان ، أما العين فلا تبدأ في أداء مهمتها إلا من بعد ثلاثة أيام إلى عشرة أيام غالباً.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

والحق سبحانه يملكها ؛ لأنه خالقها وهو القادر على أن يصونها ، وهو القادر سبحانه على أن يُعَطِّلها ، وقد أعطانا الحق مثالاً لهذا في القرآن فقال عن أصحاب الكهف : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١)﴾ [الكهف]

فَعَطَّل الله سبحانه أسماعهم بأن ضرب على آذانهم ، فذهبوا في نوم استمر ثلاثة قرون من الزمن وازدادوا تسعاً.

كيف حدث هذا ؟ . . إن أقصى ما ينامه الإنسان العادي هو يوم وليلة ، ولذلك عندما بعثهم الله تساءلوا فيما بينهم : ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..(١٩)﴾ [الكهف]

ولكن هيئتهم لم تكن تدل على هذا ، فإن شعورهم قد طالت جداً ، بل إن لونها الأسود قد تبدل وأصبحوا شيباً وكهولاً ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ..(١٨)﴾ [الكهف]

ونلحظ هنا ملحظاً يجب الانتباه إليه ، ففى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

بينما يقول فى آية أخرى في سورة السجدة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٩)﴾ [السجدة]

ولا بد أن ننتبه إلى الفارق بين «الخَلْق» و«الجَعْل» ، و«المُلْك» ، فالخلق قد عرفنا أمره ، وملكية كل شيء لله - تعالى - أمر مُلْزِمٌ فى العقيدة ، ومعروف ، أما «الجَعْل» ، فهو توجيه ما خلق إلى مهمته.

فأنت تجعل الطين إبريقاً ، والقماش جلباباً ، هذا على المستوى البشرى ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً ، وزاد من بعد ذلك ﴿أَمَّن يَمْلِكُ﴾ ، فمن خَلَق هو الله تعالى ، ومن جَعَلَ هو الله تعالى ، ومن مَلَكَ هو الله تعالى .

وهو سبحانه ينبهنا إلى ذلك ، فالأشياء النافعة لابن آدم يخلقها الله سبحانه ، ويجعلها ، ثم يُملِّكها له .

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصر وغيرهما وإن كانت قد خُلقت فى الإنسان ، وجُعلت له للانتفاع بها ، ولكنها ستظل مِلْكاً لله ، يبقيها على حالها ، أو يخطفها أو يصيبها بآفة ، أو يعطلها [1] .

إذن : فهى خُلقت لله ، وجُعلت من الله ، وتظل مملوكة لله ، ويُصيِّرها كيف يشاء ، فدقات القلب والحب والكراهية والأمور اللاإرادية التى تعمل لصالح الإنسان هى مملكة الله .

(١) يقول سبحانه : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة] .

والحق سبحانه - على سبيل المثال - جعل لكلِّ حيوان جلداً ؛ ننتفع به وندبغه إلا جلدين اثنين: جلد الإنسان وجلد الخنزير ، وقد حُرِّم استخدام جلد الإنسان ؛ لكرامته عند خالقه ، وحُرِّم استخدام جلد الخنزير ؛ ليدُلَّ على حرمته ونجاسته .

وعلينا أن ننتبه إلى أن الحق سبحانه قد خَلَقَ وجَعَلَ ومَلَكَ ، ودليل ملكية الحق - سبحانه وتعالى - أنه حَرَّم الجنة على المُنتحر [1] ؛ لأنه لا يأخذ الحياة إلا واهبُ الحياة ، فأنت أيها الإنسان لستَ مالكَ نفسك. ولا عذر لأحد ما دام قد وصله هذا البلاغ ، وعليه أن يستوعبه أما من لا يستوعب ؛ فيلقى مصيره.

لذلك فإنه سبحانه هو الذى رزق ، وهو - سبحانه - الذى يملك.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. (٣١)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، بدليل قول الحق سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص]

وما دام كل شيء سيأتى له وقت يهلك فيه ، فمعنى ذلك أن لكل شيء حياة ، إلا أن حياتنا نحن فى ظاهر الأمر عبارة عن الحس والحركة ، والإنسان يأكل الخضروات والخبز والفاكهة ، ومن هذه المأكولات وغيرها يكوِّن الجسمُ الحيوانات المنوية فى الرجل ، والبويضات فى المرأة ، ومنهما يأتى الإنسان ، وكذلك يخرج الكتكوت من البيضة المخصَّبة ؛ لأن البيضة

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩) واللفظ لمسلم .

غير المخصبة لا تُخرج كتكوتاً ؛ فهى بدون حياة ؛ ولذلك لا يتكون منها جنين ، فهناك فرق بين قابلية الحياة ، وبين الحياة نفسها.

وكذلك نواة التمرة ، إذا ما ألقيتْ دون أن توضع فى الأرض ، فلن تكون نخلة أبداً ، ولكن إذا ما زُرعتْ فى الأرض ، ووجدت لها البيئة المناسبة ؛ خرجَتْ نخلة.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ..(٣١) ﴾ [يونس]

والتدبير هو عملية الإدارة لأى شيء ؛ حتى يؤدى مهمته ، وبالله من يُدير قلبك ؟ ومن يدير حركة أمعائك ؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك ، ثم تخرج ما لا يفيدك.

إياك أن تقول: إننى أنا الذى أدير ذلك؟ ونقول: كنت طفلاً فى مرحلة الطفولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك ؟ ومَنْ الذى يدير حركة رئتيك ؟ إن الذى يديرها هو خالقها ؛ لذلك اطمئنوا على حركة أجهزتكم التى لا دخل لكم فيها ؛ لأن الذى خلقها فيكم قيُّوم لا تأخذه سنة[1] ولا نوم ، ولا يؤوده حفظ ذلك[2].

ويجيب مَنْ يسألهم الرسول ﷺ على كل تلك الأسئلة - بأمر الله تعالى- الإجابة التى حددها الله سبحانه سلفاً ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .. (٣١) ﴾ [يونس]

إذن: أما كان يجب أن نرهف الآذان ، ونُعْمل الأبصار ؛ لنرى قدرة الله سبحانه الذى وهب لنا كل تلك النعم من رزق ، وسمع ، وبصر ، وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

---

(١) السنة : النعاس من غير نوم. وقيل : السنة نعاس يبدأ فى الرأس ، فإذا صار إلى القلب فهو نوم. [اللسان مادة : وسن].

(٢) لا يؤوده حفظ السموات والأرض : أى: لا يعجزه سبحانه ولا يثقل عليه. يقال : آده الأمر: بلغ منه المجهود والمشقة. [اللسان مادة : أود].

أما كان يجب أن نقول: يا مَنْ خَلَقْتَنَا ماذا تنتظر منَّا ؛ لنعمُر الكون الذى أوجدتنا فيه ؟ فكيف - إذن - يتجه البعض بالعبادة لغير الله تعالى ؛ لشمس أو قمر ، أو ملائكة ، أو نبىّ ، أو صنم ؟ كيف ذلك والعبادة معناها إطاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ؟ وهل هناك إله بغير منهج يأمر به عباده ، ومن عبد الشمس هل كلَّفته بشىء ؟ .. لا.

إذن: يتساوى عندها مَنْ عبدها ، ومَنْ لم يعبدها ، وفى هذا نقض لألوهية كل معبود غير الله تعالى.

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿أفلا تتقون ..(٣١)﴾ [يونس]

فما دام الله سبحانه هو الذى خلق كل ذلك ، وأنزل منهجاً ، فعليكم أن تجعلوا بينكم وبينه وقاية ؛ تحميكم من صفات الجلال ، وتقرّبكم من آثار صفات الجمال [1] وأن تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام ، وإلى مطلوباته سبحانه.

وما دام كل إنسان سيجيب عن أسئلة هذه الآية ، ويعترف أن الخالق سبحانه والمالك هو الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يقى نفسه النار.

والعجيب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذى خَلَق ، فالحق سبحانه يقول: ﴿ولئن سألتهم مَنْ خلقهم ليقولُنَّ الله .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

ويقول أيضاً : ﴿ولئن سألتهم مَنْ خلق السموات والأرض ليقولُنَّ الله ..(٢٥)﴾ [لقمان]

وما دام الله تعالى هو الذى خلق ، ورزق ، ودبَّر الأمر ، فكيف تتركون عبادته وتتجهون لعبادة غيره ؟

---

(١) صفات الجمال هى صفات الرحمة والمغفرة والرضا ، أما صفات الجلال فهى صفات القهر والعلو وكونه سبحانه هو العزيز. فعلى العبد أن يهرب من آثار صفات الجلال ليذوق حلاوة آثار صفات الجمال ؛ ليدخل فى عباد الله المتقين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ[1] ﴿٣٢﴾ ﴾

وقد جاء قول الحق سبحانه : ﴿ فَذَٰلِكُمُ ﴾ إشارة منه إلى ما ذكره قَبْلاً من الرزق ، وملكية السمع والأبصار ، وقدرة إخراج الحيّ من الميت ، وإخراج الميت من الحي ، وتدبير الأمر .

إذن : فقوله سبحانه : ﴿ فَذَٰلِكُمُ ﴾ إشارة إلى أشياء ونعم كثيرة ومتعددة أشار إليها بلفظ واحد ؛ لأنها كلها صادرة من إله واحد .

﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

ولا يوجد في الكون حقَّان[2] ، بل يوجد حق واحد ، وما عداه هو الضلال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

إذن : أنتم إنْ وجَّهتم الأمر بالربوبية إلى غيره ؛ تكونون قد ضللتم الطريق ، فالضلال أن يكون لك غاية تريد أن تصل إليها ، فتتجه إلى طريق لا يوصِّل إليها . فإن صُرفتم من الإله الحق فأنتم تصلون إلى الضلال .

ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بما يبين أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال ، فيقول سبحانه : ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) فأنى تُصرفون : أي : كيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يُحيي ولا يميت . [تفسير القرطبي ٤/ ٣٢٦٧].

(٢) الحق واحد لا بمنظور الفكر البشري ولكنه بمنهج الحق ذاته ؛ لأن حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق خلافاً للسفسطائية ، وخلافاً لمن يعتقدون أن الباطل حق ، والحق باطل فليس الحق خاضعاً لتخريف العقول ، وتخريف الفكر بغية المخالفة والمغالطة .

أي: أنكم إن انصرفتم عن الحق - سبحانه وتعالى - فإلى الضلال ، والحقُّ واحد ثابت لا يتغيَّر .

ومَنْ عبد الملائكة أو الكواكب أو النجوم ؛ أو بعض رسل الله - عليهم السلام - أو صنماً من الأصنام ؛ فقد هوى إلى الضلال .

وإن كنتم تريدون أن نجادلكم عقلياً ، فلنقرأ معاً قول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله : ﴿كذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم من رزق الله تعالى للبشر جميعاً ، ومن ملْك السمع والبصر ، ومن تدبير الأمر كله ، ومن إخراج الحيّ من الميت ، وإخراج الميت من الحي ، ذلك هو الإله الحق سبحانه ، وقد ثبت ذلك بسؤاله سبحانه وتعالى هذا السؤال الذى علم مُقدَّماً ألا إجابة له إلا بالاعتراف به إلهاً حقاً : ﴿ فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إلاَّ الضَّلالُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ .

ومثل هذه القضية تماماً قَوْلُ الحق سبحانه : ﴿ حقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ على الَّذين فسقُوا أنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يونس]

لأنهم أساءوا الفهم فى الوحدانية ، وفى العقيدة ، واستحقوا أن يُعذَّبوا ؛ لأنهم صرفوا الحق إلى غير صاحب الحق .

وقد كان هذا خطاباً للموجودين فى زمن النبى ﷺ ، لكن بعضهم آمن بالله تعالى ؛ ولذلك فالعذاب إنما يحُلّ على مَنْ لم يؤمن .

وهذا القول متحقق فيمَنْ سبق فى علم الله سبحانه أنهم لا يؤمنون ،

وكذلك حقَّتْ كلمة ربك على هؤلاء الذين فسقوا ولا ينتهون عن فسقهم وكفرهم ، وإصرارهم على الانحراف بالعبودية لغير الله الأعلى والربِّ الحق سبحانه وتعالى .

والدليل على العلم الأزليِّ لله سبحانه ما نقرأه في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾[1] [البقرة]

إذن: معلوم لله تعالى مَنْ يؤمن ومَنْ لا يؤمن ، ومَنْ يستمر ويُصِرّ على كفره ؛ هو الذي يَلْقَى العذاب ، بعلم الله تعالى فيه أنه لن يؤمن .

ثم يذكر الحق بعد ذلك ما يمكن أن يُجادَلَ به الكافرون بمنطق أحوالهم ، ففي ذوات نفوس غير المؤمنين بإله توجد نزعة فطرية لفعل الخير ، وتوجيه غيرهم إليه ، وهو موجود حتى في الأمم غير المؤمنة ، فكل قوم يُوجِّهون إلى الخير بحسب معتقداتهم ، فنجد بين الشعوب غير المؤمنة بإله حكماء وأطباء وعلماء ، وهؤلاء يوجهون الناس إلى بعض الخير الذي يرونه .

ونجد الطفل الصغير يكتسب المعتقدات والعادات والاتجاهات من والديه ، ومما يسمعه من توجيهاتهم ، فتجده يبتعد عن النار مثلاً أو الكهرباء ؛ لأنه ترسخت في ذهنه توجيهات ونصائح غيره ؛ بل إنه يتعلم كيف يتعامل مع هذه الأشياء دون أن تصيبه بالضرر .

إذن: يوجد توجيه من الخلق إلى الخلق لجهات الخير ، ألا نجد في الدول غير المؤمنة بإله مَنْ يرشد الناس إلى الطرق التي يمكن أن يسيروا فيها

---

(١) في الآية إشارة إلى مجتمع النفاق ومجتمع النفاق يعيش بين مجتمعين : المجتمع الإيماني مصداقاً لقوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [البقرة] ، والمجتمع الكافر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ ﴾[النور] ، ومجتمع النفاق أخطر من مجتمع الكفر ، فالكفر معلن وأنا مستيقظ له ، أما النفاق فهو خداع .

باتجاهين ، والطرق التي عليهم أن يسيروا فيها باتجاه واحد ؟

ألا يوجد مَنْ يدل الناس على المنحنيات الخطرة على الطرق ، وكذلك يوجّههم إلى ضرورة خفض سرعة السيارات أمام مدارس الأطفال ؟

نعم ، يوجد في البلاد غير المؤمنة مَنْ يفعل ذلك.

إذن: فالتفكير في الخير لصالح الأمم أمر طبيعي غريزي موجود في كل المجتمعات ، وإذا كان التوجيه للخير يحدث من الإنسان المساوي للإنسان ، ألا يكون الله سبحانه هو الأحق بالتوجيه إلى الخير ، وهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيم حياته على الأرض ، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ[1] ﴿٣٤﴾ ﴾

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يسألهم: ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [يونس]

ومعنى أن الله يسأل القوم هذا السؤال أنه لا بد أن تكون الإجابة كما أرادها هو سبحانه . وإنْ قال قائل: وكيف يأمنهم على مثل هذا الجواب ، ألم يكن من الجائز أن ينسبوا هذا إلى غير الله ؟

---

(١) الإفك: الكذب والإثم. أنّى تؤفكون: كيف تكذبون ؟! [اللسان: مادة (أفك)] والإفك أخطر من الكذب ، حيث إن الإفك في افتراء متخيل ومبالغة باعثة لها التأثير المضر على المجتمعات والأفراد ؛ ولذلك يقول الحق: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النور] ، ولم يقل بالكذب مع أنه كذب ، ولكنه عبر بالإفك ؛ لأن فيه افتراء على كرامات الناس وقيم المجتمع .

نقول: إن هذا السؤال لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة ، فلن يجد المسئول إجابة إلا أن يقول: إن الذى يفعل ذلك هو الله سبحانه ولا يمكن أن يقولوا: إن الصنم يفعل ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين صنعوا الأصنام ، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل.

فالإجابة معلومة سلفاً: إن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على ذلك ، وهذا يوضح أن الباطل لجلج والحق أبلج [١] ، وللحق صَوْلة [٢] ؛ فأنت ساعة تنطق بكلمة الحق فى أمر ما ، تجدها قد فعلت فعْلها فيمن هو على الباطل ، ويأخذ وقتاً طويلاً إلى أن يجد كلاماً يرد بهِ ما قلته ، بل يحدث له انبهار واندهاش ، وتنقطع حجته [٣].

ولذلك لم يَقُل الحق سبحانه هنا مثلما قال من قبل: ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .. ٣١ ﴾ [يونس]

بل قال : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ٣٤ ﴾ [يونس]

وجاء بها الحق سبحانه هكذا ؛ لأنهم حينما سُئلوا هذا السؤال بهرهم الحق وغلب ألسنتهم وخواطرهم ؛ فلم يستطيعوا قول أى شىء.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - نجد وكيل النيابة يضيّق الخناق على المتهم بأسئلة متعددة إلى أن يوجه له سؤالاً ينبهر المتهم من فرط دقته وليس له إلا إجابة واحدة تتأبى طباعه ألا يجيب عنه ، فيجيب المتهم معترفاً .

---

(١) اللجلجة : اختلاط الأصوات . قال أبو زيد : يقال : «الحق أبلج ، والباطل لجلج» ، والأبلج : المضىء المستقيم . أما اللجلج فهو المختلط المُعْوَجّ والمتردد غير المستقر . [اللسان : مادة (لجج) - بتصرف].

(٢) الصولة : الوثْبة والقوة على إزهاق الباطل.

(٣) وذلك مثلما حدث من إبراهيم عليه السلام مع النمرود ، وقد قصَّه الله عز وجل فى قرآنه : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. ٢٥٨ ﴾ [البقرة] ، فبهت ، أى : فوجىء بالحجة ومنطقها فتحيَّر فى جوابه ولم يجد رداً.

والإنسان - كما خلقه الله تعالى - صالح لأن يؤمن ، وصالح لأن يكفر ، فإرادته هنا تتدخل ، لكن أبعاضه مؤمنة عابدة مسبحة ، فاللسان الذى قد ينطق الكفر ، هو فى الحقيقة مؤمن مُسبِّحٌ ، حامد ، شاكر ، لكن إرادة الإنسان التى شاءها الله - سبحانه - متميزة بالاختيار قد تختار الكفر - والعياذ بالله - فينطق اللسان بالكفر .

وقد تأتمر اليد بأمر صاحبها ؛ فتمتد لتسرق ، أو تسعى الأقدام - مثلاً - إلى محل احتساء الخمر ، ولكن هل هذه الفاعلات راضية عن تلك الأفعال ؟

لا ، إنها غير راضية [1] ، إنما هى خاضعة لإرادة الفاعل .

وحين يسأل السؤال : من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ فاللسان بفطرية تكوينه المؤمنة يريد أن يتكلم ؛ لكنه لا يملك إرادة الكلام ، فيبين الحق سبحانه للنبى ﷺ أن يجيب نيابة عن الأبعاض المؤمنة ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ۝٣٤ ﴾ وهو بذلك يؤكد الصيغة ، ويكفى أن يقول محمد ﷺ هذا القول مُبلِّغاً عن ربه ، وينال هذا القول شرف العندية : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣٤ ﴾ .

والإفك : هو الكذب المتعمَّد ، وهو الافتراء ، وهناك فارق بين الكذب غير المتعمد والكذب المتعمد ، فالكذب غير المتعمد هو من ينقل ما بلغه عن غيره حسبما فهم واعتقد ، وهو لون من ألوان الكذب لا يصادف الحق ، ويتراجع عنه صاحبه إن عرف الحق .

أما الافتراء فهو الكذب المتعمد ، أى : أن يعلم الإنسان الحقيقة

---

(١) بدليل أنها ستأتى يوم القيامة وتصبح هى الشاهدة على الإنسان ، يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤ ﴾ [النور] .

ويقلبها [1] ؛ ولذلك نجد العلماء قد وقفوا هنا وقفة ؛ فمنهم من قال : هناك صدق ، وهناك كذب ، لكن علماء آخرين قالوا : لا ، إن هناك واسطة بين الصدق والكذب .

ومثال ذلك : أن يدخل ابنٌ على أبيه ، بعد أن سمع هذا الابن من الناس أن هناك حريقاً في بيت فلان ، فيقول الابن لوالده : هناك حريق في بيت فلان ؛ فيذهب الأب ليعاين الأمر ، فإن وجد حريقاً فقول الابن صدق ، وإن لم يكن هناك حريق فالخبر كاذب ، ولكن ناقل الخبر نقله حسبما سمع .

إذن : فهناك فَرْق بين صدق الخبر وصدق المُخْبر ، فمرة يَصْدُق الخبر ويصدُق المخبر ، ومرة يصدُق الخبر ولا يصدُق المخبِر ، ومرة يصدق المخبر ولا يصدق الخبر .

فهُنا أربعة مواقف ، والذين قالوا إن هناك واسطة بين الصدق والكذب هم مَنْ قالوا : إن الصدق يقتضى مطابقة بين الواقع والخبر . أما الكذب فهو ألا يطابق الواقع الخبر .

لذلك يجب أن نفرِّق بين صدق الخبر في ذاته ، وصدق المخبر ؛ بأنه يقول ما يعتقد . أما صدق الخبر فهو أن يكون هو الواقع .

وقول الحق سبحانه : ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي : فكيف تقلبون الحقائق ؛ لأنكم تعرفون الواقع وتكذبونه كذباً متعمداً ؟

وكلنا نعلم قول الحق سبحانه : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ [2] (٥٣)﴾ [النجم]

(١) المؤتفكة : البلدة التي ائتُفكت بأهلها أي : انقلبت . والائتفاك : الانقلاب . [اللسان : مادة (أفك)] . وقال ابن كثير : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣)﴾ [النجم] : يعنى مدائن قوم لوط قلبها الله - تعالى - عليهم ، فجعل عاليها سافلها . [تفسير ابن كثير : ٤/٢٥٩ - بتصرف] .

(٢) وهو الذى قصده رسول الله ﷺ في قوله : «إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٠٧) والبخارى في صحيحه (٦٠٩٤) .

والمؤتفكة : هى القرى التى كُفئت أعلاها إلى أسفلها ، كذلك الكذَّاب يقلب الحقيقة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وهذا أمر للرسول ﷺ بأن يسألهم سؤالاً جديداً ، لا إجابة له إلا ما يفرضه الواقع ، والواقع يؤكد أن الهداية لا تكون إلا للحق ؛ لأن كل كائن مخلوق لغاية ، فلا شيء يُخلق عبثاً [1] .

ونحن بقُدرتنا المحدودة نصنع (الميكرفون) و(التليفزيون) أو الثلاجة أو السرير وغيرها ، كلّ منها له غاية ، وكل له قوانين صيانته الخاصة به ، والذى يحدِّد الغاية من هذا المصنوع أو ذاك هو صانعه ، ويضع لها قوانين صيانتها ؛ لتؤدّى غايتها ، فالغاية من أى شيء توجد قبل الشيء نفسه ؛ ليوجد الشيء على مقتضى الغاية منه .

وآفة العالم الآن أنهم يعلمون أن الله سبحانه خلق الإنسان ، ولكنهم يصنعون من عندهم قوانين لصيانة الإنسان وحركة الإنسان ، وهذا غباء وغفلة من الذين يفعلون ذلك ، كان عليهم أن يتركوا أمر صيانة الإنسان للقوانين التى وضعها خالق الإنسان سبحانه .

---

(١) يقول تعالى فى سورة المؤمنون : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون] وقال سبحانه فى الذاريات : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات] فللخلق غاية وحكمة وهى العبادة بمعناها المطلق أى : الطاعة .

فالحق سبحانه وتعالى قد حدد الغاية من خَلْق الإنسان وحدّد قوانين صيانته ، والشر الموجود حالياً بسبب الجهل بغاية الإنسان ، والعدول عن المنهج الذى يجب أن يسير عليه الإنسان ، فقال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ .

أى : هل من هؤلاء الشركاء مَنْ يهدى الإنسان إلى غايته ؟ هل قالت الشمس - مثلاً - غايتها ؟ هل قالت الملائكة غايتها ؟ هل قالت الأشجار أو الأحجار أو الرسل الذين عبدتموهم شيئاً غير مراد الله تعالى ؟

إنهم آلهة لا يعرفون الغاية من العابد لهم ، ولا يعرفون الطريق الموصل إلى تلك الغاية .

ولذلك يأتى القول الفصل : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ .

فالله هداك أيها الإنسان إلى الحق فى كل حركة تتحركها بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه مكتملاً على رسوله ﷺ من بدء « لا إله إلا الله » إلى إماطة الأذى عن الطريق[1] ، وهو منهج مستوعب مستوف لكل حركات الإنسان .

وجاءت الإجابة من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ ؛ لأنهم انبهروا بالسؤال وتلجلجوا ولم يوجد عند أى منهم قدرة على المعارضة ، فالغاية من خلق الإنسان وغيره يوجزها قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

والعبادة ليست أركان الإسلام فقط ، بل هى عمارة الكون كبنيان حىّ

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة . فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان» . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩) ، ومسلم فى صحيحه (٣٥) .

للإسلام ، والذى حدد الغاية هو الخالق سبحانه ، وهو سبحانه الذى يحدد طريق الوصول إليها .

ونحن حين نرغب فى الوصول إلى مكان فى الصحراء مثلاً ، إنما نحدد أولاً المكان ، ونختار طريق الوصول ، فإن كان الطريق المستقيم مليئاً بالعقبات والجبال ، فإنك ستضطر للانحراف عن هذا الطريق وصولاً إلى غايتك ، فهذا الطريق المعوج هو الطريق المستقيم ؛ لأنه الطريق الذى يجنبنا العقبات .

ومثال ذلك : السيول التى تنزل على هضاب الحبشة ، فاختارت لنفسها المجرى السهل فكان نهر النيل ، فلا أحد قد حفر النيل مثلما حفرنا الرياحات أو قناة السويس ، بل نزل السيل واختار لنفسه الطريق السهل فسار فيه بين التعاريج والرمال والصخور .

ولذلك أنت تجد كل ما لا دخل للبشر به قد يتعرج لينفذ ، أما ما صنعه البشر فلا يستطيع ذلك .

وكل خلق لا بد له من غاية ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام يقول : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء]

فمن خلق هو الذى يحدد الغاية ؛ لأن هذه الغاية توجد عنده أولاً ليخلق ، وتتجلى الدقة فى قول القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فلم يقل : الذى خلقنى يهدينى ، بل قال : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ مما يدل على أن هذه القضية ستخالَف ، وبعد أن يخلق الإنسان سيقوم بعض الناس - حماية لمصالحهم - بوضع طريق أخرى تخالف الغاية ؛ فتوصل إلى الضلال .

أما الحق سبحانه فقد أنزل القرآن فيه الهداية الحقة ، فالذى خلق هو

الذى يقنن ، ولذلك يذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ والَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) ﴾ [الشعراء]

وبهذا القول وصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى أن الذى رزق الآباء قدرة استنباط الرزق مطعماً ومشرباً هو الله سبحانه .

وذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء]

فالإماتة والإحياء هما من الحق سبحانه ، فلا أحد يسأل عمن يملك الإماتة والإحياء ، أما عن شفاء المرض فقال : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) ﴾ (١) [الشعراء]

فأنت قد تذهب إلى الطبيب وتظن أنه هو الذى يشفيك ؛ بل هو يعالج ، ولكن الله هو الذى يشفى .

وهكذا نعلم أن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) ﴾ [الشعراء]

هو كلام منطقى ؛ لأن خالق الشىء هو الذى يهدى إلى الغاية من الشىء ؛ فالغاية أولاً ، ثم الخلق ، ثم توضيح الطريق الموصل إلى تلك الغاية ، فإذا خولف فى شىء من ذلك فلا صلاح لكون أبداً .

وتجد فى القرآن على لسان سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه]

---

(١) عن أبى رمثة رضى الله عنه قال : انطلقت مع أبى نحو النبى ﷺ ، فإذا هو ذو وفرة ، بها ردع حناء وعليه بردان أخضران فقال له أبى : أرنى هذا الذى بظهرك فإنى رجل طبيب . قال : « الله الطبيب ، بل أنت رجل رفيق ، طبيبها الذى خلقها » .

فما دام الحق سبحانه قد خلق فهو يهدى إلى السبيل الموصل إلى الغاية ، ويقول القرآن أيضاً : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) ﴾[1] [الأعلى]

وهكذا يتأكد لنا أنه ما دامت هناك غاية ، فلا بد من وجود طريق يهدينا إليه من خَلَقَنَا .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ لأنه سبحانه هو الذى خلق ؛ ولذلك فمن المنطقى أن يأتى بعد ذلك التساؤل : ﴿ أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّى إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ .. (٣٥) ﴾ ؟

وسبب وجود اللام فى قوله : ﴿ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾ هو النظرة إلى الغاية ، وسبب وجود : ﴿ إِلَى الْحَقِّ ﴾ هو لفت الانتباه إلى أن الوصول إلى الغاية يقتضى طريقاً ، فأراد الحق سبحانه فى آية واحدة أن يجمع التعبيرين معاً .

ونحن نعلم أن هذه الآية قد نزلت فى الذين اتخذوا لله شركاء ، فهم يعترفون بالله تعالى ولكنهم يشركون به غيره ، فالله سبحانه وتعالى تفرَّد بالألوهية بربوبيته للخلق ؛ لأنه خلق من عَدَمٍ ، ورزق من عُدْمٍ ، وخَلَق لنا وسائل العلم ودبَّر لنا الأمر ، وأخرج الحىَّ من الميت ، وأخرجَ الميت من الحى ، وهدى للحق .

فأين - إذن - هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم مع الله تعالى ؟ وهل صنع واحد منهم أو كُلُّهم مجتمعين شيئاً واحداً من تلك الأشياء[2] ؟

---

(١) ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ .. (٢) ﴾ [الأعلى] أى : خلق الخليقة وسوَّى كل مخلوق فى أحسن الهيئات . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ .. (٣) ﴾ [الأعلى] . قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة وهدى الأنعام لمراتعها . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٥٠٠] .

(٢) ويقول سبحانه فى سورة الروم : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾ [الروم] .

لذلك قال سبحانه : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ [يونس]

إذن : فالذى يهدى هو الذى خَلَق ، وهؤلاء الذين أشركوا اعترفوا بالله خالقاً بشهاداتهم حين قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

إذن : فالذين أشركوا قد ارتكبوا الإثم العظيم ، وهؤلاء الشركاء إما أن يكونوا من الملائكة ، أو من الأنبياء والرسل الذين فُتن بهم بعض الناس ، وهناك من اتخذ وسائط أخرى مثل : الشمس والقَمر والنجوم ؛ وهذه أشياء عُلوية ، وبعض الناس اتخذوا وسائط سفلية كالأشجار والأحجار ، فهل أى شىء من كل ذلك يهدى إلى الحق ؟ وما منهج أى منهم إذن ؟ وكيف بلّغوكم به ؟

إن كل هؤلاء يعلمون أن أياً منهم لا يستطيع أن يَهدى ، بل هو يُهْدَى من الله سبحانه وتعالى ، فمن أين قلتم إن الملائكة ستهديكم؟ أو من أين جاء الذين فُتنوا برسولهم واتخذوه إلهاً ؟ ومن أين جاء هذا الرسول بمنهجه ؟

إن كل كائن لا يَهدى إلا بعد أن يُهدى من الله أولاً ، وإن كانت الأشياء - المتخذة شركاء - لا هداية لها ، ولا منهج ، ولا عقل ، ولا تفكير ، كالشمس والقمر والنجوم فى العلويات ، والأشجار والأحجار فى السفليات ، فماذا قالت هذه الأشياء ؟ إنها لم تقل شيئاً .

وهكذا لا يستقيم أمر اتخاذهم شركاء مع الله ، حتى الملائكة ، فالله هو الذى يختار منهم المَلَكَ الذى يُبلِّغ عن الله سبحانه ، وكذلك الرسل عليهم السلام : ﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ .. (٣٥) ﴾ [يونس]

﴿ لاَّ يَهِدِّى ﴾ تقرأ هكذا ، وللغة فيها عملية تخفيف جَرْس لسلامة نطقها واستقامة اللغة العربية ، فنحن نعرف أن ﴿يَهِدِّى﴾ يعنى : يهتدى . . أصلها يهتدى . . ويهتدى فيها هاء ساكنة وتاء ودال وياء . . وفيها تقارب لمخارج الحروف ، وهذا التقارب يجعل المعنى غائماً ، والنطق ثقيلاً ، فتقوم اللغة بعملية إبدال وإدغام ، وتخلّص من التقاء الساكنين فتصل إلى مسامعنا كما أنزلها الله تعالى لسلامة النطق وجمال المعنى ؛ لأن القرآن أدَّب اللغة بكلام السماء ؛ لتكون خالدة اللفظ والمعنى . فإذا كنتم على طريق هداية ، فالأصل فى الهداية هو الله تعالى .

وينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . . (٣٥) ﴾ [يونس]

أى : ماذا أصاب عقولكم لتحكموا هذا الحكم ؛ فتشركوا بالله ما لا منهج له ، أو له منهج ولكنه موصول بالله تعالى جاء ليبلغه لهم ؟

وساعة تسمع ﴿كَيْفَ﴾ فهى للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان - فى عُرْف العاقل - أن تحدث . كأن تقول : « كيف ضربت أباك ؟ » أو « كيف سببت أمك ؟» ، وهذا كله من الأمور التى تأباها الفطرة ويأباه الطبع والدين .

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ كأنه أمر عجيب ما كان يصح أن يحدث ؛ لأن الحق سبحانه وحده هو الإله ، والحق هو الشىء الثابت الذى لايتغيَّر غاية وطريقاً . والله سبحانه وحده هو الذى حدد لنا الغاية والطريق الموصل إليها ، وهو سبحانه القائل : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ . .(٢٥) ﴾ [يونس]

والمنهج هو الطريق الذى يوصل إلى دار السلام من آفة الأغيار [1] ؛

---

(١) أى : أن أحوال الدنيا تتغير وتتبدل ولا تثبت على حال واحدة .

لأن الدنيا كلها أغيار ، فأنت قد تكون قوياً ثم تضعف أو صحيحاً فيصيبك المرض ، أو غنياً فتفتقر ، أو مبصراً فيضيع منك بصرك ، أو تكون صحيح الأذن سميعاً فتصير أصم بعد ذلك [1].

إذن : فهى دنيا أغيار ، وهَبْ أن إنساناً أخذ من دنياه كل نصيبه عافية وأمناً وسلامةً وغنًى وكل شيء ؛ سنجده فى قلق من جهتين : الجهة الأولى أنه يخاف أن يفارقه كل هذا النعيم ، أو يخاف أن يترك هو هذا النعيم ، هذا ما نراه فى حياتنا .

إذن : فالدنيا بما فيها من أغيار لا أمان لها ؛ لنفهم أن كل عطاءات المخلوق إنما هى هبة من الخالق سبحانه وتعالى ؛ لأنها لو كانت من ذاتك لاستطعت الحفاظ عليها ، ولكنها هِبَاتٌ من الحق الأعلى سبحانه .

والأمر الموهوب قد يصبح مسلوباً .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا .. (٣٦) ﴾ يفيد أن بعضهم كان يتبع يقيناً ؛ لأن مقابل الظن [2] هو اليقين ، فالنسب التى تحدث

(١) ولأن الدنيا دنيا أغيار أوصى رسول الله ﷺ رجلاً وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/ ٣٠٦) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس ، وأقره الذهبى .

(٢) الظن كما أنه شكٌ فإنه أيضاً يقين إلا أنه ليس بيقين عيان ، إنما هو يقين تدبُّر ، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم ، وهو يكون اسماً ومصدراً ، وجمع الظن : ظنون . قال تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا .. (١٠) ﴾ [الأحزاب] [لسان العرب : مادة (ظنن)] .